مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد(10)، العدد (1)، (جوان -2025)، ص 463-481
ISSN: 2602-5566 EISSN: 2716-8999

سؤال الحرية في فكر إريك فروم

Question of Freedom in Erich Fromm's Thought

وليد مرياح[*1] ، محمد رضا حشاني[2]

[1] جامعة باتنة1، مخبر حوار الحضارات والعولمةLDCM، (الجزائر)، mohamedredha.hachani@univ-batna.dz

[2] جامعة باتنة1، مخبر حوار الحضارات والعولمةLDCM، (الجزائر)، walid.meriah@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2025/02/12 **تاريخ القبول: 2025/05/12**

ملخص:

مثّل صعود (النازية) ظاهرة لاإنسانية، غير مسبوقة،في تاريخ البشرية، جعلت "فروم" يُؤجل جُل أعماله الفكرية، متجها صوب تحليل ذلك الوضع العام الذي بثته ، والذي جعل الإنسان آنذاك ،يتجه صوب التنازل عن "حرية"، طالما ناضل من أجلها، هذا الإهتمام قاده، لتتبع مسار تحرر الفرد، بداية من العصور الوسطى، مع بيان أشكال السلطات التي كانت مهيمنة عليه، وكيف تحرر منها ببطء شديد، محققا فردانيته من خلال إقتناص وبلوغ مستوى (الحرية-من)، ولعدم نمو إمكاناته الإنسانية، أضحت هذه الأخيرة في نظره، عبئا لا يطاق، بث فيه مشاعر العزلة والقلق، ووجهه نحو تبني "آليات هروب"، تعد "النازية" إحداها، ليتنازل عن مكاسبه وذاته لصالحها، وللخروج من هذا المأزق (الوجودي – النفسي)، يقترح "فروم" مفهوم ومسار آخر إيجابي،يمثله ويعبر عنه مستوى الحرية-إلى، كطريق سوي، قوامه الحب، العمل، التواصل.

كلمات مفتاحية: الإنسان، الحُرية- من، العُزلة، الإغتراب، الحُرية- إلى.

Abstract:

The rise of Nazism constituted an inhuman and unprecedented phenomenon in the history of humankind. It compelled Erich Fromm to set aside most of his intellectual projects and to analyse the social condition it engendered, a condition in which individuals relinquished a freedom for which they had long struggled. Fromm therefore retraced the process of individual emancipation from the Middle Ages onward, demonstrating how people gradually liberated themselves from dominant forms of authority and attained what he terms *freedom-from*. Yet, because their specifically human potentials remained undeveloped, this negative freedom became an intolerable burden, generating isolation and anxiety. Consequently, many resorted to mechanisms of escape—Nazism among them—surrendering both their gains and their selves. To overcome this existential and psychological crisis, Fromm advances a positive alternative: *freedom-to*, a constructive path rooted in love, work, and connection.

Keywords: human being; freedom-from; isolation; alienation; freedom-to.

[*] المؤلف المرسل

1- مقدمة

لقد إكتست "الحرية" أهمية كبرى، كمبنى "قيمي"، وكغاية إنسانية مُلحة، لا يتحقق الوجود الأصيل –الكامل، إلا من خلالها، أهمية جعلتها حاضرة مبدأ وهدفا، ضمن جل الفعاليات الثورية، التي شهدها التاريخ الإنساني، سواء على مستويات جماعية، محلية محدودة، أو جماهيرية، أممية، عارمة، كل هذا هيأها من جانب آخر، لتكون طرحا مركزيا تنظيريا، لا غنى عن تحليل مفاهيمه وأبعاده، ضمن كل مذهب "إنساني"، ذو صبغة "وُجودية"، إذ نلمس لها حضورية جلية، لدى مفكرين عظماء، على غرار "هيجل"، "ماركس"، "نيتشه"، "سارتر"، و"إريك فروم".

هذا الأخير ،من منطلق توليفة فريدة "فرويدوماركسية"، بصمت فكره ،وميزته عما سواه، حاول كشف "الميكانيزمات "والنظم "الإجتماعية- الإقتصادية" خصوصا، السائدة ضمن فترات تاريخية مُتلاحقة، وكذا تتبع آثارها وإنعكاساتها "السيكولوجية"، الفردية والجماعية،على ذات الإنسان ، من منطلق كونها روابط أولية، مُقوضة بالدرجة الأولى ،لتكامله الداخلي، ولعلاقاته مع نفسه، الآخر، والعالم، روابط وجب عليه كسرها ،ضمن صيرورة مساره *التقدمي*، الرامي لبلوغ *فردانية* كاملة، كسبيل وحيد لإقتناص وتحقيق *الحرية -الإيجابية*، التي بها ،ومن خلالها يتكشّف *الإنسان*كسيد ،كامل، ذو إمكانات مُفعلة كليا.

-فما مفهوم الحرية في فكر "إريك فروم"؟ جوهرها، أبعادها، وآليات تحقيقها؟

-بداية وجب الإشارة إلى أن "فروم"،بإعتماده منهج التحليل النفسي الإنساني(الذي يعتبر أحد رواده)، وكذا التحليل التاريخي -الإجتماعي، الذي نتلمس ضمنه ،حضورية أطياف "ماركس" و"ماكس فيبر"، وبإستقرائه للمراحل التكوينية –النفسية، لشخصية الإنسان، ضمن حقب زمنية مُتقاربة، مع تتبع تأثيرات النظم الإجتماعية- الإقتصادية، و الثقافية -الإعتقادية، المُتغايرة، على توجهات وقيم الأفراد والجماعات، حاول معالجة مشكلة"الحرية"، كقيمة جوهرية إنسانية، وفق منظورين مترابطين غير منفصلين:

1- مُعالجتها بناءا على إعتبارها جزءا من هيكل "شخصية" فرد، مُفعّل الإمكانات بالكامل، ناضج - منتج.

2-من منظور كونها قدرة على فعل "الإختيار"الصحيح، بين بدائل، تراجعية إرتكاسيه، وأخرى تقدمية -نمائية.

مُستهدفا بهذا ،بناء فهم أعمق للحرية ،كقيمة إنسانية، وكذا تجاوز تلك الرؤى المجردة ،غير المدعمة بسند"إمبريقي"، تجريبي -إنساني، والتي لاحظ هيمنة تصوراتها الكُلية، على أغلب المشكلات الفلسفية الكبرى، كالحرية ،الخير، والشر، منذ "أفلاطون"، مرورا "بتوما الإكويني"، بما إنعكس سلبا، بعدم الفهم والتحليل السليم لها. (فروم، 1964-2011، صفحة 167)

2- الحرية- من:

في سبيل صقل وبناء مفهومه، حول "الحرية-من"، يستحضر"فروم" عدة مستويات وأبعاد، تحليلية مُتداخلة، تكاملت لتشمل، البعد"الثيولوجي –الرمزي"، و"التاريخي"، وكذا البعد "الإجتماعي –الاقتصادي"، وذلك من خلال ربطه لهذا المفهوم، بحالة إنسانية "وجودية" فريدة، إصطلح عليها مصطلح "عملية التفرد"، والقائمة حسبه ،على خلق قطائع وإنفصالات وجودية ،مع جميع الروابط الأولية، كروابط التربة(طبيعة -منشأ)، وروابط الدم(قرابة، عشيرة)، إذ من خلال حالة *الإنفصال* ،كوضع إنساني خاص، ناتج عن فعل "عصيان"، وُلد الإنسان، وبزغ تاريخه ،وإنبثقت حريته. (فروم، عن العصيان ومقالات أخرى، 1981-2016، صفحة 9)

إن حالة الإنفصال كقطيعة وجودية، تمنح الحرية "دلالة"، تشير إلى غياب وفقدان شيء ما، نلتمس رمزيتها الأولية حسب "فروم" ،ضمن قصة "السقوط"، التي نصت وعبرت عنها "التوراة" في عديد "أسفارها"، حين أكدت أن "آدم" و"حواء" ،كانا مرتبطين بروابط "التربة-طبيعة"، ورابطة "الدم"، أعميين، لتنفتح أعينهما، بمجرد إكتسابهما "المعرفة"، معرفة الخير والشر، لتكون هذه القصة، قصة بداية "نهضة" حسب "فروم"، بدل كونها قصة "سقوط" ،كما عرفت. (فروم، أن تصيروا آلهة -تفسير إشعاعي للعهد القديم وتقاليده، 1966-2013، صفحة 75)

من منطلق كونه أنموذج "أنثروبوس"، كسر "آدم" ذلك الإنسجام الأولي مع الطبيعة، التي تمثلها "الجنة"، والتي تكافئ تكوينيا ،وضع "الجنين" في رحم أمه، ليلقي بذاته ضمن وضع لا يمكن التراجع عنه بعدها، وهو وضع "الإنسانية"، "الوعي"، و"الفردانية"، مفتتحا بهذا أفق الوجود والتاريخ (فروم، الوضع البشري المعاصر، 1930-2021، صفحة 83)، كل هذا هيأته معادلة، قوامها ثالوث إنساني "عصيان-طرد-ميلاد "، خرق نواميس الحدود والأوامر الإلاهية، وعلى رأسها حد ،عدم قرب شجرتي "المعرفة"و"الحياة". (fromm, 2013, p. 22)

على الصعيد "البيولوجي –التطوري"يؤكد "فروم"،بأن ظهور الإنسان ككائن مُتفرد، حدث وفق آلية "إنفصال" كذلك، وذلك حين كف التطور في مرحلة ما، على أن يكون مُحددا وراثيا بالغريزة، بالإضافة لفقدان التكيف صفته القسرية، عند هذه اللحظة فقط، تجاوز الإنسان "الطبيعة"، إذ بالرغم من أنه أصبح أكثر الكائنات عجزا "غريزيا "، إلا أن دماغه ووعيه، نمى بشكل رهيب، مع إنتصاب قامته، بالشكل الذي جعله يدرك ذاته، ويدرك إنتماءه للطبيعة، مع تجاوزها في آن واحد، وعليه فالإنفصال عن المأوى الأصلي-طبيعة، جعل الإنسان، يدخل ويفتتح مسلك "الحرية-من"، كسبيل أساسي لفردانية ،مُوصلة لولادة كاملة. (fromm, the sane society, 2013, p. 29)

نفس العملية يلتمسها "فروم" على المستوى *التكويني*، الجسدي والنفسي للطفل، الذي يولد بيولوجيا ،بمجرد أن يفارق الوضع "الجنيني"، بقطعه لحبله السري ،الذي يربطه بأمه، غير

أنه يظل مرتبطا بها وظيفيا لفترة، ذلك أن إستقلاليته وإنفصاله عنها ،لازال "فجا"، ليكتسي نوعا من الصلابة، ببداية إدراكه لذاته، كمنفصلة متميزة ،عن أمه وعالمه، ويساهم في هذا التمركز الذاتي، نضجه الجسماني، وكذا إتساع دائرة معارفه ومداركه ،بفعل"التعلم" و"التربية"، التي بمرور الزمن ،تعمل على صقل وبناء نظام متكامل داخله، والمتمثل في "الشخصية"، هذا النظام يجعله ينفصل، ويتجنب بشكل أكبر ،الخضوع لسلطة والديه ،وغيرها من السلطات (خصوصا تلك التي إتسمت بصبغة من اللاعقلانية)، و يطلق "فروم" على هذا الوضع أو المرحلة البشرية، مصطلح نمو "قوة النفس"، مُعتبرا إياه شرطا ضروريا للفردانية، ومرتبة مهمة، للسير نحو بلوغ "الحرية-من". (fromm, escape from freedom, 2013, pp. 31-34)

إيمانا منه بالإنعكاسات الإقتصادية، الإجتماعية، والثقافية على وضع *الفردانية*، وعلى تزايد "الحرية-من" أو تقليصها، حاول "فروم"، إستقصاء وتتبع هذه الأخيرة، في فترات تاريخية متقاربة، ذات بنى ،ونظم مختلفة نوعا ما.

مُسلطا الضوء بداية، على وضع الإنسان في "العصور الوسطى"، مؤكدا أن إنسان هذه الفترة، بالرغم من أنه لم يكن حرا، بمفهوم "الحرية-من"، إلا أنه كان يتمتع ببنية "نفسية – وجودية" متشبّعة بمشاعر "الأمن"، و إنتفاء "الشك"و"القلق"، خصوصا في بدايات ومنتصف هذه الحقبة التاريخية، فعلى الصعيد "الإجتماعي" مثلا، تجذّر كل فرد في طبقته، حيث كان من النادر الإنتقال من طبقة لأخرى، وقد تم إعتبار "الهرمية –المجتمعية" آنذاك،" نظاما طبيعيا" وجب تقبله، أما على صعيد"العلاقات" الإنسانية، فقد سادت "الأخوة"، وغلب "التعاون" ،على سلوكات أعضاء المجتمع الواحد، كما هيمنت "إقتصاديا" بعض الصناعات، في ظل غلبة شبه كاملة للنمط الفلاحي، الذي إزدهر بشكل ملفت ضمن النظام "إقطاعي"، شجع الفرد وحثه على الإنتاج ، لتتولى النقابات تنظيم عمليات البيع بعدها، في نقاط محددة، بناءا على مواثيق معلومة، تغلب عليها قيم ،وروح "التعاون"، بما منح الفرد "المُنتج" أريحية وأمان، في ظل غياب مبدأ "المنافسة" (fromm, escape from freedom, 2013, pp. 44-45)، أما على الصعيد "الديني"، فحاولت "الكنيسة"مرارا، كمشرع-قيمي، التخفيف من حدة المعاناة، بنسبتها مبدئيا لفعل "الخطيئة" الأول (آدم)، مع تأكيدها ودعوتها لمبادئ الثقة، وحب الآخر، بما سيخمد كل شك وخوف، من جانب آخر كان فهم "الكون"، بسيطا وساذجا، فالأرض والإنسان ،مركز هذا الكون، و"الجنة "هي المكان المُستقبل له ،بعد وضع الموت . (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، صفحة 41)

وعليه فبالرغم من أن الإنسان، خلال مرحلة "العصور الوسطى"، لم يكن حرا من روابطه الأولية، بل كان مُقيدا، إلا أنه تمتع بالأمن، وإنتفاء الشك، والقلق، وهذا راجع، بالدرجة الأولى حسب "فروم" ،إلى كون الفرد خلال هذه المرحلة، لم يولد بعد، بالمفهوم المعروف، لغياب فعل

وعملية "التفرد"، بشكل كامل آنذاك، حيث لم يتصور الإنسان ذاته، إلا من خلال وسيط دوره الإجتماعي. (fromm, escape from freedom, 2013, p. 46)

مع بروز بوادر "الرأسمالية"، بداية من "إيطاليا"، كنتيجة لمزايا جُغرافية، تجارية، وسياسية مُعينة، أخذت روابط المجتمع "الإقطاعي"، التي كانت منبع "الأمان" بالتمزق، خصوصا مع ظهور طبقة ثرية، ممتلئة بروح"المبادرة"، "القوة"،و"الطموح"، شكلت رحم ولادة "الفرد" ،بمفهومه الكامل، هذا الأخيرسرعان ما بدأ بالنظر لذاته وللآخر، نظرة"إنفصال"وتمايز، كما تصور الطبيعة موضوعا للسيطرة وموضوعا "جماليا" أيضا، في ظل تطويره لروح كونية (fromm, escape from freedom, 2013, pp. 46-49)، ليتضاعف كل هذا، بإزدياد التوغل الكبير في فترة "عصر النهضة"، إذ تراجع الثبات النسبي، لوضع التجار والحرفيين البسطاء، في ظل تنامي الشركات "القومية –العالمية"، الإحتكارية، كما تراجع دور الفلاحين، الذين فقدو إمتياز ملكية الأرض، بالإضافة لإنحصار دور "الكنيسة"، بفعل ثورات دينية-ثقافية عارمة ،إستهدفتها. (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، الصفحات 47-48)

مع بروز فروقات"طبقية"شاسعة، إستُغل جراءها العمال، الذين كافحوا بدورهم ،ضد كل هيمنة وإستغلال، لتصاحب هذه التغيرات الإجتماعية- الإقتصادية، والدينية، إنعكاسات وخيمة، إمتدت لتطال الوضع "السيكولوجي-الوجودي"للفرد و المجتمع، أين خيمت روح "القلق" و"العدمية"و"فقدان المعنى" و"الشك"،على عموم الإنسان، في ظل تغير مبادئ وأهداف "القيم" كذلك، أين أصبح "رأس المال" هو معيار"الفضيلة"الوحيد، بما إنعكس سلبا على مفاهيم "الوقت" أيضا، والذي أضحى ثمينا، حيث رُبط بالعمل ، ليجعل منه نشاطا "إضطراريا". (fromm, escape from freedom, 2013, pp. 57-58)

يُوجه "فروم"أيضا، تحليلاته ضمن مسعى تتبع جدلية"الحرية-من "، لتلك الثورات الدينية ذات الأبعاد المترامية، والتي شهدها"عصر الإصلاح"، وفي مقدمتها "اللوثرية" ومبادئها، محللا بداية ،شخصية "لوثر"كمؤسس، ليضعه موضع الشخصية"التسلطية"، شخصية غير سوية، تعاني من متلازمة" إستواء طرفي السلطة" -تثور ضد سلطة معينة، وتخضع لأخرى أقوى منها- (fromm, escape from freedom, 2013, pp. 64-65)، فرغم أن ظاهر مبادئه، موجه أساسا لتحرير الفرد من سلطة "الكنيسة" [ننبه إلى أن "اللاهوت" الكنسي، خصوصا "الكاثوليكي"منه، السابق لحركة الإصلاح، أكد على كرامة الإنسان ،وحريته في رغبة الخير، وسعيه الفطري نحو الخلاص، الذي لا يتحقق إلا بجهده، وهذا نفسه مذهب "أوغسطين"، و"توما الإكويني"، و"دونز سكوت"، و"بيل"و"أوكام"]، بما منحه بعدا حيويا لنمو "الحرية" الشخصية، بل والسياسية كذلك، إلا أن مبادئ حركته حسب "فروم"، كانت مجرد"مرآة"، عكست"سيكولوجيا"شخصه وطبقته، وروجت فساد الإنسان "قبليا" و"فطريا"، فهو وفق تصورها"شرير"بالطبيعة، وجب أن يلغي ذاته نهائيا،

بفعل التذلل ،والخضوع الكامل "لله"، كسبيل لنيل عفوه ومغفرته، ومنه فالإنسان وفقها لا يمكنه أن يكون فاضلا كليا، على إعتبار أنه "شرير"بالطبيعة، كما أنه يستحيل عليه تحقيق خلاصه بجهده الفعّال، بل بإلغاء ذاته وفقط، في حضرة إله عظيم القدرة، أما "إقتصاديا"، فقد جعل "لوثر"الفرد تابعا للأهداف الإقتصادية. (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، الصفحات 63-75)

نفس الأمر بالنسبة "للكالفينية"، فبالرغم من تحرير مبادئ"كالفن"للفرد، من سلطة "الكنيسة "، إلا أنها نفخت فيه كذلك ،روح "اللاجدوى"، وإحتقار العالم، مع وجوبية التذلل لنيل محبة، عفو، وغفران"الله"، وقد تميزت عن "اللوثرية" على وجه الخصوص ،بتركيزها وإيمانها بمبدأ "سبق التقدير"، الذي ينص على أن "الله"، قرر خلاص أو لعنة الإنسان مُسبقا، قبل ولادته البيولوجية، وعليه فلا ضرورة لبذل هذا الأخير ،جهدا في سبيل خلاصه، و بهذا نلمح مناداة ضمنية منها "باللامساواة"، و"اللاعدل"، طغيان ،وجور، ولا تبريرية أحكام وأفعال*الله*، وبالرغم من تأكيدها على مبدأ "سبق التقدير"، الذي زرع القلق واللاجدوى، في نفوس الأفراد، فإن *الكالفينية*،تقدس مبادئ "العمل" والنشاط الدنيوي، وتنادي بها، هذا الأخير الذي يتحول ثانية معها ،من طابع "إرغامي-إضطراري"،مدفوع بمؤثر"خارجي"، إلى آخر "إرغامي" مدفوع بمؤثر"داخلي"، كونه أضحى "آلية -هروب "، من حالة اللاجدوى، والعدمية الغالبة والمهيمنة، وهذا ما يمثل مستوى "سيكولوجي" آخر، خطير جدا، طبعا مع شيوع حالة "عداوة" و"إستياء" شديدين، طبعتا علاقة الأفراد، سواء ضمن الطبقة الواحدة، أوضمن طبقات هرمية ،متباينة. (fromm, escape from freedom, 2013, pp. 79-87)

إن المعتقدات الدينية، "البروتستانتية" منها على وجه الخصوص، والتي جاءت أساسا لتحرير إنسانها "روحيا"، بما يتلاءم، بل ويتجاوز، مرحلة إنهيار النظام "الإجتماعي" للعصر الوسيط، إمتدت لتطال بنية، وهيكل "شخصية"هذا الأخير، مهيأة المجال لمرحلة لاحقة، مُكملة، لمطلب تعزيز "الحرية-من"، مرحلة واصلت، وإضطلعت تحديدا بالتحرير العقلي، الإقتصادي -الإجتماعي، والسياسي للفرد، ألا وهي مرحلة المجتمع"الصناعي -الرأسمالي" الحديث. (fromm, escape from freedom, 2013, p. 95)

يستهل "فروم"تحليله لوضع الإنسان، ضمن هذه المرحلة ،من تطور وبزوغ "الرأسمالية"، بالتنبيه إلى أن أي تحليل لا يستهدف جوهريا، فهم مقاصد ودلالات "المبادئ" الأساسية للرأسمالية، كمبدأ "التقدم "مثلا، وآليات تحقيق هذه الأخيرة، على مختلف الأصعدة والمجالات، سيكون مجرد فهم وتحليل "رومانتيكي- لاعقلاني" (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، صفحة 91)، وعلى ضوء هذا، يشرع في تحليل الوضع "الإقتصادي" السائد آنذاك، والذي تميز حسبه، بالنمو الكبير للنشاط"الصناعي"، وكذا تزايد الملكية "الخاصة" لوسائل الإنتاج، وتعاظم رأس المال، قيمة

وإستعمالا، كل هذه المتغيرات إنعكست إيجابا، على وضع "الطبقة الوسطى" خصوصا، في ظل منح "الرأسمالية"،إمكانيات النجاح والكسب المادي اللامحدود للفرد، مع حرية التملك والتبادل، إحتكاما لما تهيئه له مبادرته الذاتية، شجاعته، وأفعاله، كمعيار وحيد، كل هذا قاد و ساهم في تحسن ملحوظ، للأوضاع الإقتصادية، فردية كانت أم جماعية، ربحا وإنتاجا. (fromm, escape from freedom, 2013, pp. 98-99)

على الصعيد "الإجتماعي"سرعت "الرأسمالية" آنذاك، بدعمها النشاط"الفرداني"، عملية الإصطباغ بالصبغة "الفردانية*، مما جعل الفرد يدرك بشكل أكبر ذاته، كرامته، وبالتالي إعترف بنفسه والآخر كإنسان، بما فتح أفق "المساواة" و"التواصل"، مع إحتكام هذا الإنسان لنظم إجتماعية "وضعية"متفق عليها، تراعي *الحقوق*، بدل تلك المشتقة ،من نواميس كلية-دينية،حدث هذا طبعا ،بعد تحرره على مستوى المعتقد، من كل خرافة وتوجه صوفي، بل وبعد أن عمد لقرن هذه الأخيرة بمفهوم "الوهم"، الواجب رفضه بالمطلق، مع تحويل التجربة "الإيمانية" ،من داخلية لخارجية، أما على المستوى "السياسي" ، فقد هيمنت ثورات كبرى إجتاحت "إنجلترا"، "فرنسا"، "أمريكا"، مماساهم في نضج "الحرية" السياسية، ومهد لتبني نظم "دمقرطة" الدولة الحديثة، أما بالنسبة لعلاقة الإنسان بالطبيعة، فقد عضدت "الرأسمالية" سيطرته عليها، بما رقاه ليكون مركزا أساسيا ،وحيدا للكون . (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، الصفحات 92-93)

في إطار تحليله لجدلية "الحرية-من"، ضمن نطاق تطور "الرأسمالية"، ينتقل "فروم" لتقصي الإنعكاسات السلبية لإنجازاتها أيضا، على المستوى "النفسي –الوجودي" للفرد خصوصا، وعلى مستويات أخرى كذلك، إذ "الرأسمالية "حسبه ،رغم دعمها "للفردانية" ،كأساس لنمو "الحرية-من"، إلا أنها تركت الفرد وحيدا من جانب آخر، يسبح في نوع من "العزلة" و"القلق" المتفاقمين (fromm, escape from freedom, 2013, p. 96)، في ظل عجزه الكامل عن مواجهة التحديات "الصناعية" الكبرى، التي يبدو ضمنها كمجرد ذرة منفصلة، في مواجهة"شركات" عالمية عملاقة، بالإضافة إلى أن "الرأسمالية" ،ساهمت في تزييف وتغيير أهدافه "الكسبية"، فلم يعد الغرض من النشاط الإقتصادي، دعم عملية "العيش-حياة"، كما كان الأمر سابقا في "العصر الوسيط"، بل زاغت بغرض هذا النشاط نحو "الكسب المادي"،بعد نقلها له،وترقيتها إياه لمصاف "الغاية" في ذاته، غاية تعلوا على الإنسان نفسه، كما لاحظ "فروم"كذلك ،أنه ضمن عملية العمل -رأسمالية، تحول الإنسان إلى مجرد "ترس"،ضمن آلة إقتصادية كبرى، وهنا يستحضر أدوات ومفاهيم "ماركس"،حول العمل "المغترب"، الذي شيء الإنسان، وجعله تابعا، وخادما لغرض "مادي" ،خارج ذاته، مُرجعا أسباب هذه الخلفية النفسية ،الميمنة على هذا الوضع، لتلك المبادئ السابقة، التذللية، التعبدية، الصنمية، التي دعا إليها كل من"لوثر" و"كالفن" (فروم، الخوف من

الحرية، 1941-1972، صفحة 94)، دون نسيانه التنديد بتعرض "العامل" البسيط أيضا، في خضم علاقاته بالنقابات وأرباب العمل، للإستغلال الرهيب، إذ لم يعدو كونه مجرد موضوع "تتلاعب" به هذه الأطراف، ليمتد تأثير"الرأسمالية" السلبي، ليطال صاحب العمل ذاته، الذي غلب عليه الميل نحو "التقشف"، كما يضاف لكل هذا فقدان "المرجعيات" التشريعية، الإجتماعية منها والدينية، حيث أضحت قيم "رأس المال"،هي القيم الوحيدة، السائدة والمقبولة. (fromm, escape from freedom, 2013, p. 101)

ليخلص "فروم"كذلك، للتأكيد على أنه، في ظل "الرأسمالية "الصناعية الحديثة، رغم بعض المكاسب "التحررية-من"، غلبت عموما مظاهر"اللامعنى"، "العدمية"، و"التشرذم" بدل "التجذر"، *المصلحة الذاتية* و*الأنانية*[نشير هنا إلى أن "فروم" ،له فهم مغاير لفهم "لوثر"، "كالفن"،" كانط"، "فرويد"، حول مفهوم "الأنانية"]، مما جعل الفرد يستشعر ثقل "الحرية – من" بشكل أكبر، وجعله عرضة لتبني آليات "هروب" أوميكاميزمات "إنسحاب" من وضعه النامي هذا . (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، الصفحات 95-96)

وعليه فرغم بطء وتدريجية عملية نمو "الحرية-من"، ورغم أهميتها الكبرى، في صقل "فردانية" الإنسان ،كثمرة إنفصال عن روابط الأرض، الدم، العشيرة، والمعتقد، بما إنعكس إيجابا على وضعه الشخصي، ملكاته، وعلاقاته، غير أنها حسب "فروم" ،إمتدت أيضا لتبث في ذاته، إنعكاسات "سلبية" وخيمة، خصوصا على المستوى "السيكولوجي-الوجودي"، والإجتماعي، من خلال حصرها إياه ضمن وضع "عزلة"،"خوف"، و"لا جدوى"، التي تعدت مستوى الفرد الواحد، معلنة ميلاد "المجتمع اللاسوي"، مجتمع أضحى يرى في الحرية العبء ،الذي لا يطاق، وبالتالي فتحت إمكانية التنازل عنها ،لصالح "صنمية"جديدة، ظاهرة كانت ،أم مجهولة. (فروم، مفهوم الإنسان عند ماركس، 1961-1998، صفحة 64)

3-الحرية-إلى :

لا يؤمن "فروم"بأن مسار الحرية الكلي، يقود أو يضع الإنسان ،داخل حلقة مُفرغة، بل من منطلق نظرة "جدلية"، نابعة من صلب دينامية منهجه الفلسفي العام، يصر على وجود نمط، أو مستوى آخر، داخلي، لا خارجي، يحمل معنى "الإمتلاء"، بدل "التخلص"، أو الفقدان، مكمل ومتجاوز، لنمط "الحرية -من"، ضروري، لبلوغ الفرد غاياته الأساسية، وبالأخص تلك المتمثلة في"إقتناص" وتحصيل الحرية التامة، نمط يضمن فردانية، إبداع، نقدية، نمو، وتواصل الإنسان، دون الوقوع ،أو التطابق مع الأوضاع "اللاسوية-السلبية"، كالوحدة و العزلة، الشك والعجز، إنه نمط "الحرية-إلى "، الضامن لنمو الملكات العقلية، والعاطفية للإنسان، نموا كاملا فعالا (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، صفحة 210) [نذكر أنه قد يصادف الباحث مفاهيم ، من قبيل

"الحرية-في"، "الحرية-نحو"، "الحرية-من أجل"، إنها مفاهيم تحمل نفس الدلالة المفاهيمية، كونها تشير وتعبر جميعا عن هذا النمط الإيجابي من الحرية، كما تصوره "فروم"].

إن "الحرية-إلى" حسب "فروم"، تدعم كون الإنسان فاعل وهدف "أعلى –نهائي"، لجميع نشاطاته، ليصبح في خضمها ،الغاية المطلقة، التي لا يجب أن تخضع لسواها، وعليه يمكن القول بأن هذا النمط ،يعزز "نمو" الإنسان، وينحو به نحو ،تكثيف سعادته، بالشكل الذي يدعم فن "العيش-حياة"، المتطابق مع التوجه "البيوفيلي"الباطني، من توجهات "الشخصية"، ولأن قوامها"العفوية"، "الإنتاجية"، "الكرامة"، و"الحب"، فهذا يوجب عليها ،الإقرار بميل الإنسان "فطريا" نحو "التوسع "و"النمو"، نمو يدعمه أو يثبطه ،هيكل "شخصية" كل فرد، لنلحظ هنا أيضا بُعدها "النفسي-الوجودي"، هذه الخصائص والمنطلقات، تقودنا لزاما ،للتسليم -من الناحية الأخلاقية-بأن الشخص الذي لا يملك إمكانية إختيار "الشر" حسب تصور "فروم"، هو الشخص"الحر" حقا، ذلك أن "الشر"هو نقيض "العفوية "و"الإنتاجية"، كمبادئ جوهرية، منطوية ضمن مفهوم "الحرية-إلى"،الإيجابي. (فروم، جوهر الإنسان، 1964-2011، صفحة 177)

هذه الرؤية تتوافق في عدة جوانب ،مع تحليل "ماركس"للوضع الإنساني، ضمن النظم والمجتمعات "الرأسمالية"، تلك التي شيأته ،وأفقدته "المعنى"، ذاتيا وعمليا، بشكل أخرس دوافعه الإبداعية، وزيف علاقاته وأهدافه، المتمثلة في تحقيق "السعادة" و"الحب"، له وللآخر. (فروم وآخرون، بوذية الزن والتحليل النفسي، 1960-2006، صفحة 154)، ذلك أن الإنسان "الكامل" بمفهوم "ماركس"، هو أيضا ذلك الفرد"المنتج"، الذي يضع العالم ،صُلب دائرة اهتماماته، ويستجيب له، وهذا بالضبط ما تكفله "الحرية -إلى"بالمنظور "الفرومي" الخالص.

(فروم، ماوراء الأوهام، 1962-1994، صفحة 75)

بتأكيده على إرتباط هذا المستوى من الحرية، بهيكل "الشخصية"، فإنه يمنحها طابعا داخليا، سيوجه حتما ،نحو كسر تلك الفواصل والحواجز، التي جعلت الإنسان "غريبا" عن ذاته، بما يساهم في تجذير روابطه، بالذات، بالعالم، وبالحقيقة كفعل "تنويري"، كما سيساهم في نقل تصورات الفرد، من قيد "الميتافيزيقي" ، إلى تحررية واقعية ،مُتجسدة على مستوى "المعيش – اليومي" كفن (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، صفحة 217)، هذا العمق الكينوني لها كما تصوره "فروم"، يجعل "الحرية-إلى"، تتصل بفعاليات داخلية أخرى، تمثل شرطها وعمادها، في مقدمتها "العفوية"، حيث يصف "فروم"النشاط "العفوي"، بأنه نقيض كل فعل قسري ،أو آلي نابع من إستجابة لضغط خارجي، إنه ببساطة غير هذا، بل هو كل نشاط منبثق عن *إرادة* حرة، شكلتها وحدة داخلية ،من تعاضد ملكات الإنسان، وحدة إمتدت تأثيرا، لتجعل سلوكه"مباشرا-طبيعيا"، سلسا، بما يمنح صاحبه جاذبية وتعاطف ،واضحين، ويهيئه للتواصل مع الآخر، دون قطائع، كل هذا سيتعالى بالفرد لبلوغ دائرة "السعادة"، كما أنه نشاط "إنساني"، موجه نحو تنمية

فعل "الحرية-إلى"، وسواء إقترنت "العفوية"، برؤية منظر طبيعي، أو بحب شخص ما، وسواء إرتبطت بفنان، شاعر، أو فيلسوف، فإن *فروم*يختص فئة "الطفل" العُمرية، بأكبر نسبة، وأقصى قوة ،وتركيز منها، ذلك أن "الطفل" يمتلك وضعا وجوديا فريدا ،خاصا. (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، الصفحات 207-209)

إن النشاط "العفوي"حسب "فروم"، هو نشاط يمنح قوة للذات، ويعزز تكاملها وفردانيتها، من خلال إرتباطه بالموقف "الإبداعي"، الذي يمثل جوهر "الحرية-إلى"، كما يمثل الدافعية المثلى للتقدم الوجودي، كنقيض تام لجميع التوجهات "الخبيثة"،المرتبطة بهيكل "الشخصية" غير السوية، وعليه فهو بهذا يدعم توجهات الشخصية "المنتجة" عامة، دون إستثناء، وهنا نشير إلى أن"الإنتاجية"عند "فروم"، هي كعديد المفاهيم المركزية، مستمدة من خلفية *ماركسية*بحتة. (فروم، مفهوم الإنسان عند ماركس، 1961-1998، صفحة 48)

لتوضيح فكرة *الإنتاجية*بشكل أعمق، وجب التعريج على مفهوم *الشخصية -المنتجة *، إذ أنها نمط أو توجه إنساني، قوامه عمليتي "الإستيعاب" و"التنشئة الإجتماعية" بطريقة سوية، حميدة، ناضجة، معاكسة ومغايرة للتوجهات "الإستغلالية"، "التلقفية"، "الإدخارية"، و"التسويقية"، اللاسوية، إنها نمط مكافئ للنمط"الليبدي "عند"فرويد"، رغم أن هذا الأخير، غلب عليه الكثير من الغموض. (فروم، جوهر الإنسان، 1964-2011، صفحة 69)

إن "الإنتاجية"، لا توافق ببساطة مفهوم "النشاط"، كما لا تتماهى ضرورة، مع فعل تخريج وخلق منتجات" مادية" ملموسة، وإلا لتم إعتبار كل شخص، خاضع لتنويم مغناطيسي نشطا أيضا، إنها مخالفة، كونها ترفض أن تكون نتيجة أي قيد وإجبار، ناجم عن "سلطوية"مؤثر خارجي، أو داخلي -نفسي، كالقلق، الجشع، والبخل مثلا، بل إنها تستحضر بشكل كامل، مُقدرات الفعل الإنساني الأصيل، الحر، المنبثق عن وضع حرية، إيجابية بناءة. (فروم.، 1947-2007، صفحة 139)

من جانب آخر، يمكن القول أيضا ،بأن "الإنتاجية" تدعم فعل وفن "الحياة" كغاية، بدعمها التوجهات الموصلة، والمحققة له، كونها خُلاصة قوة"ذات" كبرى، لا تتخارج نحو السيطرة على الآخر، بل تتدافع نحو خلق روابط جديدة، قوامها "الحب" و"التعاون" ،على المستوى العلائقي وقبله الذاتي (فروم، جوهر الإنسان، 1964-2011، صفحة 36)، وكذا خلق أشياء "مُستحدثة" على المستوى المادي، من منطلق الجمع بين نماذج "إستنساخيه –واقعية" ،ظاهرية، وأخرى"توليدية-إبداعية"،عميقة، بما يهيئ إنبثاق مُتفرد في كل مرة، فتكون بالتالي نشاطا "إنسانيا"، سويا، يرفض ويضعف ما عداه ،من الأنشطة اللاسوية- المغتربة، ورغم ضرورتها لتحقيق كمال الفرد، إلا أن *فروم*يستطرد، نافيا بلوغ هذا الأخير في شكله النهائي، مؤكدا أن ما يتحقق دوما،

هو جزء ضئيل فقط ،من الإمكانات البشرية، وهذا يعد من أعظم التناقضات "الوجودية"، التي تتخلل كينونة الإنسان، إذ يموت دوما ،قبل أن يولد بالكامل. (فروم.، 1947-2007، صفحة 122)

إن "العفوية"،تتماشى إذا مع "الإنتاجية"، كما ترتبط أيضا وفق تصورات "فروم"، بقيمة ضرورية عليا، تمثل شرطا، ونتيجة "للحرية -إلى"، وهي القدرة على فعل "الحب"، الذي يطعمه ببعد آخر، يتجاوز "السادية"و"المازوخية"، من خلال وضعه له ،مجموعة شروط أساسية، ينتفي هو ذاته ،بمجرد إنتفاء أحدها، كشرط"المعرفة"، "الإحترام"، "المسؤولية"، و"الرعاية"، كل هذه تجعل منه جهدا وإلتزاما، لا مجرد نشاط "عرضي"، مقدما قصة"يونان"مثلا وأنموذجا حيا عبر عن هذا النمط من الحب المنتج، أنموذج طالما تغنت به النصوص المقدسة (فروم.، 1947-2007، صفحة 131)، مع تأكيده بأن الحب "الأمومي"، يمثل أرقى أنواع الحب "إنتاجية"، لأنه ببساطة حب "غير مشروط"، عكس الحب الأبوي –السلطوي ،المشروط (فروم.، 1947-2007، الصفحات 132-133)، على صعيد آخر، نجد أن"فروم" ينزل "الحب" منزلة"الفن"، داعيا إلى وجوب تعلمه، قبل ممارسته، والتعامل معه كأي فن ضروري آخر، بل وإعتباره الأكثر ضرورة، خصوصا وأن له جذورا باطنية "شخصية"، كونه جزءا من بنية الذات، عكس غيره من الفنون الأخرى، كالرسم مثلا والهندسة، التي لا تعدو كونها، فنونا أو أنشطة خارجية فحسب. (فروم، فن الحب-بحث في طبيعة الحب واشكاله، 1956-2000، صفحة 14)

أما على المستوى "الوجودي –القيمي"، فإن "فروم"يربط "الإنتاجية"، بالنمط "الكينوني" ،من أنماط "الوجود"، بدل النمط "التملكي"، من منطلق أن "التملك"، إذا حدث وتجاوز نطاق الضروري المقبول، أصبح موافقا لتلك التوجهات "اللاسوية"، كالإستقلالية المفرطة، الجشع، والبخل، خصوصا إن كان مدفوعا بآلية "تعويضية –مرضية"، أما النمط "الكينوني"،فقائم على تنمية الملكات الكلية، كجوهر داخلي "للحرية –إلى". (فروم، الإمتلاك أو الوجود -الأسس النفسية لمجتمع جديد، 1976-2018، صفحة 116)

4-الحرية -كحرية إرادة وإختيار:

يناقش"فروم"الحرية أيضا، على مستوى آخر، مرتبط ومتصل بسابقه، وهو مستوى حرية "الإرادة"،في إختيار الفرد لأفعاله وقيمه، والذي يوضع عادة ،على مستوى التحليلات الكلاسيكية، في مقابل مفهوم "الحتمية"، إذ يربط "فروم" بداية، فعل "الإختيار"، لا بتصورات "دوغمائية" متعالية، بعيدة عن الواقع، بل بالنشاط "الملموس"، البارز والظاهر، بنية وتأثيرا، على مستوى الواقع الحياتي "المعيش"للإنسان . (فروم، جوهر الإنسان، 1964-2011، صفحة 172)

لينتقل إلى التأكيد، على أن فعل "الإختيار"، يقابل ويوجه دوما نحو"بديلين"أساسيين، هما إما إتباع وضع نابع عن ميول، "عقلانية -سوية"، تمثل الأحسن، إذا تعلق الأمر بالسؤال الأخلاقي العام، المرتبط بالحياة، أو إتباع بديل"لاعقلاني"، يمثل الأسوء، ويقود دوما لنسج علاقات

سلطوية، صنمية، إغترابية، لا سوية، تتخل حياة الفرد، وعلاقاته. (فروم، جوهر الإنسان، 1964-2011، صفحة 175)

مع الإشارة إلى أن "الأخلاقية"المرتبطة بالحياة، أي التنظير "القيمي" للفعل الإنساني بالنسبة له، يقاس بناءا على معيار، مدى تأثير هذا الأخير على "شخصية"وقيم الفرد، فكل ما هو "تقدمي-نمائي"،يحكم عليه بأنه "أخلاقي"، من منطلق دعمه للعقل، الحب، التي تمثل في جوهرها صوت "الحرية"الكاملة، أما ما عداه، أي "التراجعي –الإرتكاسي"، التفويضي، فهو بطبيعة الحال لا -أخلاقي، وعليه فإن حرية "الإختيار" عند "فروم"، هي حرية إختيار بين "بدائل"متاحة، يمكن وصفها بالقيمية، بالدرجة الأولى، وهي متوغلة أيضا ،ومرتبطة بهيكل "شخصية" الفرد، والتي تمثل توجهاتها ،سبيل الحكم على وضعه، ولأن الميول والتوجهات الداخلية، تكون شبه متوازنة، ضمن الهيكل الداخلي لغالبية الأفراد، فإن هؤلاء يمتلكون غالبا، بشكل مبدئي إمكانية "حرية الإختيار". (فروم، جوهر الإنسان، 1964-2011، صفحة 177)

بربطه حرية "الإختيار"بهيكل "الشخصية"كذلك، وبتوجهات الفرد نحو الآخر والعالم، ضمن عملية"الحياة"، فإن "فروم"يمنح هذه الأخيرة ،بعدا "ملموسا"، يخرجها نهائيا من ذلك المفهوم والطابع المجرد، ذلك أن تكثيف فعل "الحياة"حسبه، يعزز أو يضعف القدرة على إتباع الإختيارات السليمة المتاحة ،من عدمه، فكل خطوة يخطوها الفرد في إطار"فن العيش"، تزيد ثقته بنفسه، شجاعته،و إيمانه بقناعاته الذاتية، والتي كلما إتسعت دائرتها، توسعت معها إحتمالية إختيار البدائل "العقلانية -السوية"، وكلما قلت، فتحت المجال لغيرها، من إستسلام، وضعف الثقة بالنفس، فتضيق دائرة تبني الإحتمال "العقلاني" كخير، وتتسع دائرة إتباع نقيضه "اللاعقلاني" كشر. (فروم، جوهر الإنسان، 1964-2011، صفحة 183)

وسواء على الصعيد الفردي أو الإجتماعي ،قد يفشل الإنسان في "فن الحياة"، وبالتالي ينمي توجهات"نيكروفيلية -تراجعية"،ضد نفسه والآخر، إذا فشل في تحقيق إمكانية"الحرية "، القائمة أساسا، لا على إدراك "البدائل الحقيقية" المتاحة فحسب، بل على إدراك "عواقبها"أيضا، عواقب تتجاهل في الغالب، كونها تحتاج لكثير من "البصيرة"،وكذا لقوة من "التضحية"، وعليه فإذا حدث ودمرت البشرية نفسها-وفقه-، فلن يكون هذا بسبب "شر"فطري، متجذر في قلب وشخصية الإنسان، بل لسبب وحيد، متمثل في عدم إدراك وإختيار البدائل "الواقعية – الحقيقية"، ونتائجها، ثم إتباعها. (فروم، جوهر الإنسان، 1964-2011، صفحة 191)

يتخذ البديلين الإختياريين المركزيين، في تصورات "فروم"، سميائيات دلالية متنوعة، كبديل بين الحياة أو الموت، النمو أو التشرذم، البركة أو اللعنة، الصحة أو المرض، الإشتراكية أو البربرية، ونظرا للأهمية المصيرية لكل منها، يحاول "فروم"اللجوء لأدوات منهجية فعالة، "سيكو إجتماعية"خصوصا، بهدف تحليل الظروف، أو المحفزات، التي تدعم أو تحد كل بديل منهما (فروم،

جوهر الإنسان، 1964-2011، صفحة 160)، وفي مقدمتها "الثقافة" السائدة، ذلك أن الثقافة ذات الطابع"الإرتكاسي"، ستنمي حتما من خلال آليات، تمتد للتأثير حتى في "لاوعي " الأفراد، تنمي بدائل "تراجعية"، بل وتجعل تبنيها أمرا ،يبدو طبيعيا بالنسبة لهم، لتهيئتها الجو السيكولوجي العام، الذي يصير "معيار" الفرد الوحيد، حول مفهوم "السوي"و"المرضي"، أما الثقافة "التقدمية" المستنيرة، فإنها ستقدم نقيضها حتما، وتجعل ظهورها غير مقبول، وغير لائق جماهيريا، وتجعل الفرد المتشبع بها ،يحس "العزلة"، لغياب إمكانية تطابقه، مع هيكل مجتمعي عام، يخالف إختياراته وتوجهاته. (فروم، جوهر الإنسان، 1964-2011، صفحة 157)

إن إدراك الظروف المتحكمة في نمو "البدائل"، والممتدة للتأثير على "إختيارات" الفرد ،في تبني أحدها دون الآخر، بآلياتها المختلفة، جعل"فروم"يعطي أهمية كبرى، لعملية"الوعي"، كشرط أساسي لإختيار البديل"التقدمي"،وإدراك عواقبه، كسبيل نحو بناء "حرية إيجابية" تامة، تكسر كل "ضرورة"، ذلك أن "الوعي"هو الملكة ،التي يميز بها الإنسان ميوله"العقلانية"،عن تلك "اللاعقلانية". (فروم، جوهر الإنسان، 1964-2011، صفحة 194)

وهنا يمنح "فروم"الوعي، بعد ربطه بالمعرفة، مستويين، وعي الفرد بالظروف والقوى الخارجية المحيطة به، أثناء عملية تخارجه نحو -الآخر والعالم، وكذا وعي توازن قواه الداخلية، مع إدراك اللحظة التي لايزال فيها حرا (ذلك أن فشل أغلب قرارات الفرد، راجعة لكونها تتخذ بعد إنقضاء لحظة الحرية، ولهذا فوعي لحظة الحرية مهم جدا في تصورات "فروم")، وكل هذا يكسي الوعي بعدا "نفسيا-إجتماعيا"، معرفيا، بما يتوافق مع نظرته العامة، الرافضة لبناء وعي، على أسس ومبادئ نابعة من "تقليد"معين، أو"سلطة"ما، لأن هذا سيجعل منه وعيا "مغتربا". (فروم، جوهر الإنسان، 1964-2011، الصفحات 179-181)

في تأكيده على أهمية "الوعي"،داخل معادلة "الحرية"وإختيار البديل السوي، نلحظ حضورية واستدعاءا منه، لأطياف كل من "فرويد"و"ماركس" من جديد، حيث أن "فرويد" ألح أيضا على أهمية وعي الفرد، بالقوى "اللاواعية"داخله، والتي حسب إعتقاده ،تحدد بشكل كبير سلوكاته، إذا أراد تحرير نفسه، وكذلك فعل "ماركس"،بتأكيده أيضا على ضرورة وعي المصالح "الطبقية"، وكذا القوى الإجتماعية -الإقتصادية، دون أن ننسى تأكيدهم جميعا وإلحاحهم على ضرورة تدعيم فعل "الوعي"،وإرفاقه "بإرادة" نشطة ،و"عمل"، كإستعداد واقعي ،يضمن تكامل المعادلة، تنظيرا وتطبيقا. (فروم، جوهر الإنسان، 1964-2011، صفحة 170)

ولأهمية "الوعي"في التحقيق الكامل للحرية "الإيجابية"، يعمق "فروم"تحليل هذه الملكة والنشاط الإنساني ،محددا مراحله أيضا، أو ما يجب أن يعيه الفرد، في سبيل خلاصه وإنسانيته الأصيلة، كضرورة الوعي بما يشكل قيمتي "الخير"و"الشر"، ووعي الرغبات "اللاواعية"،الكامنة خلف إختياراتنا وسلوكاتنا، وكذا وعي الإمكانات الحقيقية ،التي تؤهل كل فرد لإختيار معين، مع

وعي عواقب هذا الأخير، مقارنة بغيره، بالإضافة لوعي الإجراءات العملية، المُساهمة والمُساعدة، على تبني كل إختيار، فوق كل هذا يؤكد على ضرورة وعي "لا -فعالية" الوعي نفسه، إذا حدث ولم يرفق بالإرادة والعمل، مع الإستعداد "الوجودي"، لتحمل تلك الإحباطات والعواقب، الناتجة عن تبني خيارات "لاعقلانية"، من خلال هذا فقط، ستتضح "البدائل" أمام الفرد، وسيتمتع بحرية "إختيار"حقيقية، تقوده دوما لتبني "بدائل إيجابية"، تدعم حريته التامة، كغاية إنسانية قصوى. (fromm, The Heart of Man- Its Genius for Good and Evil , 1964, p. 103)

5- الإنسان المعاصر ووضع الحرية:

يؤكد "فروم"أن "الحرية" بمعناها الإيجابي، قد شهدت نموا كبيرا، في بعض البلدان، على غرار "الو.م.أ"و"ألمانيا"، خصوصا في تلك الفترة التي تحررت فيها "الطبقة الوسطى"، من جميع ممثلي النظام القديم، بما هيأ لها تحقيق إنتصارات إقتصادية، وسياسية ،غير مسبوقة، لتواصل هذه المكاسب إزديادا، في ظل شيوع الرؤى الفكرية، الداعمة لمسار تحرر الفرد ،كمطلب "وجودي"ضروري [نُذكر بأن ذاتية ،وحرية الفرد، كانت المسألة الأهم، في قلب كل مذهب فكري، "فكانط "و"هيجل" مثلا، ركزا عليها رغم جعلهما الفرد ،تابع لأغراض دولة شاملة القوة، أما "فيورباخ"، "ماركس"، "شتينر"، "نيتشه"، فأكدوا على ضرورة عدم خضوع الفرد، لأغراض خارجية، عدى نموه وسعادته]، لتبلغ "الحرية-الإيجابية"حسبه ،مع منتصف القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين ذروتها، حيث لم تعد مدفوعة بتطلعات الطبقة الوسطى فحسب، بل إمتدت أيضا، لتشمل الطبقة العاملة كذلك، فتم بالتالي إعطاؤها ،لا صبغة محلية فقط، بل صبغة "كونية" عالمية، تمظهرت في مبادىء الدولة الحديثة -الديمقراطية. (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، صفحة 103)

بتزايد تركيز "رأس المال"، وتطور الهياكل "التقنية"، وتفاقم إمتداداتها، دخلت "الرأسمالية" مستوى آخر، وهو مستوى "الرأسمالية -الإحتكارية "، الذي إختلت وتراجعت في ظله ،قيم "الحرية الإيجابية"، نتيجة إضعاف القوى المعززة لها، بل وتزعزعت المبادرة الفردية أيضا، التي وجدت نفسها، محاصرة ومهددة بهياكل عملاقة، على الصعيد الإقتصادي خصوصا، لتسود ضمن كل هذه الأوضاع مشاعر"العزلة"، "العجز"، "القلق"، طاغية على ذات الفرد وعلاقاته، بدرجة تفوق تلك الدرجة، التي عاناها خلال المرحلة التالية ،لتحرره من روابط المجتمع "القروسطي"، ليتنامى تردي مستوى "الحرية الإيجابية"، وتهاوي "الفردانية" ،بتفاقم إحكام "الرأسمالية –التسويقية"، و"الفائقة"، قبضتها على جميع أوضاع الإنسان المعاصر . (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، صفحة 104)

خصوصا بعد إزدياد التضخم "الألماني"، وإنهيار السوق "الأمريكي" مطلع هذا القرن، وتغيير بنية الهيكل الإقتصادي العام، بإستبدال رجال الأعمال، والفلاحين المستقلين (كطبقة وسطى

سابقا)بالموظفين، الوكلاء، والمدراء، كل هذا زعزع مكتسبات الذات، التي مثلت حصيلة جهد قرون عديدة. (فروم، المجتمع السوي، 1955-2009، صفحة 416)

بتجاوز"العزلة"، "العجز"، و"العدمية"، المستوى الفردي المحدود، وتحولها لظاهرة "إجتماعية" عامة، يطور "فروم"لتتبع ،وتحليل كل هذا، مفهومه حول "شخصية المجتمع"، مردفا إياه بإستجلاب وإستقدام مفهوم آخر، يساهم في تشخيص أثر "الرأسمالية" على "الشخصية"، بشكل أعمق وأدق، مع تطعيمه بدلالة مُستجدة خاصة، ألا وهو مفهوم "الإغتراب"، الذي إكتسى تاريخيا، معاني متعددة، تراوحت بين الإشارة "للذهان"،أو"الجنون" في الإستعمال اللغوي "الفرنسي"، وكذا "الإسباني"، ليحمل دلالات أخف نوعا ما، مع كل من "هيجل"و"ماركس" ، إذ قُرن معناه بنوع من "التغرب الذاتي"، ليسقطه "ماركس"خصوصا، على عملية "العمل"، مشيرا به لذلك الوضع ،الذي يصبح فيه العمل"سلطة"،تعلو العامل، وتقف ضده (فروم، المجتمع السوي، 1955-2009، صفحة 332)، إلا أن "فروم"في إستحضاره لهذا المفهوم ،يغوص أعمق من كل هذا، رابطا إياه "بالصنمية" و"الوثنية"، التي شهدها التاريخ الإنساني البدئي -البدائي، على مستوى معتقداته الدينية، حيث كان الإنسان يصنع "أصناما" مادية، مُجسدنة، بيديه، ثم يُسقط عليها صفات، أو قيم، كالحب، القدرة وغيرها، التي هي صفاته هو بالأصل، بما يجعل ذاته مفرغة، خاوية، ولإستعادة ما أسقطه على الصنم، وجب عليه أن يدخل في وضع "عبادة"، وخضوع كلي له، لتتطور الصنمية حسب "فروم" ،إلى عبادة "الزعيم"،"العشيرة"، "الدولة"، "الرمز"، وأخيرا "النجاح". (فروم، المجتمع السوي، 1955-2009، الصفحات 233-234)

بناءا على كل هذا ،يطور "فروم" مفهومه الخاص حول "الإغتراب"، للإشارة لوضع، لا يخبر فيه الإنسان نفسه ،"كمركز" لعالمه، وكصانع لأفعاله، بل يخبر فعله، وعواقبه كسيد له، وكقوة تعلو عليه، تقتضي منه التقديس والعبادة، وبالتالي تنحدر به ،إلى مستوى "الشيء"، في ظل فقدان التواصل "المنتج"مع ذاته، الآخر، والعالم، ليعمم هذه الظاهرة "اللاسوية -المرضية "، على المجتمع المعاصر ككل . (فروم، المجتمع السوي، 1955-2009، صفحة 232)

بالإستناد لمفهومه السابق الذكر ،حول "شخصية المجتمع"، المناقض لتصورات "النسبية"، التي لا تعترف ،بوجود بنية شخصية مشتركة، يصف"فروم"وضع الإنسان المعاصر، في عملية العمل"بالإغتراب" الشامل، ذلك أن العامل ،لم يعد حسبه سيد"منتجه"، بل أصبح "ترسا"، ضمن آلة صناعية -إقتصادية، سيدها على ذاته، في ظل روح "الإستغلال" المهيمنة، على علاقاته الإنتاجية، والتي بمجرد إحتكامها لقوانين "السوق"، بثت روح عدم "الإكتراث" العام، وساهمت في كسر الرابطة العلائقية، بما جعل صاحب العمل أيضا، ينظر للعامل نظرة "إستخدامية –أدواتية"، موجهة لخدمة رأس المال، كغاية وفقط، بما قضى نهائيا على ملكات الإبداع، المتعة، ضمن هذا الفضاء، والتي إزدادت بضخامة منشآته، منشآت أفقدت العامل،

إمكانية معرفة جميع أجزائها، فما بالك ربط علاقات تواصل، مع صاحبها. (فروم، عن العصيان ومقالات أخرى، 1981-2016، صفحة 102)

نفس"الإغتراب"، "التشيء"، "الأداتية"، و"العجز"، إمتد ليهيمن وفقه ،على علاقة رجل "الأعمال المؤسساتي"بزبونه، الذي تحول في نظره لمجرد "موضوع" ،قابل للإستغلال، ليس موضوعا عينيا، بل"مجردا"، أي رقم، يمكن أن يقدم إضافة لكتلة الإنتاج، التي أضحت مجردة أيضا، توصف بمصطلح"نسبة" الإنتاج ،بدل كتلته (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، صفحة 100)، ليطال *الإغتراب*في ظل ضخامة المؤسسات(الذي أضحى صبغة عامة)، هيكل شخصية *المدراء* أنفسهم، بسبب تفاقم المسؤوليات، ومعها التحديات والمنافسة، مع إنفصال ملحوظ بين مبدأ *الإدارة*،ومبدأ*الملكية*، بالشكل الذي حول أصحاب *رأس المال*، إلى مجرد مُلاك أسهم جزئيين، يفتقدون لخاصية السيطرة الكلية، على المؤسسة، وبإنتفاء الملكية الكاملة، وفقدان السيطرة ،تضاعف عجزهم، إغترابهم، ولا جدواهم، ليصبح الكل مجرد رقم، أو شيء مسخر لغاية تتجاوز ذاته. (فروم، المجتمع السوي، 1955-2009، صفحة 237)

لم يقتصر "الإغتراب"حسب "فروم"على مرحلة"الإنتاج" فحسب، بل تعداه لمرحلة "الإستهلاك"أيضا، القائمة على عملية "بيع-شراء"، ذلك أن "المستهلك" ،في المتجر الضخم، لا يتم تقييمه، بناءا على ميزاته الشخصية "العينية"، أو بناءا على رغباته الخاصة، بل يتم النظر إليه كطرف "مجرد"،لا عيني، له مساهمة أو دور ما، في العملية الإستهلاكية. (فروم، المجتمع السوي، 1955-2009، صفحة 213)

طرف "مغترب" كليا، لا يملك أي أذواق جمالية، نابعة من إختياراته الحرة، وذلك للتأثيرات الكبيرة، التي أحدثتها "الدعاية"و "الإعلان"،على عواطفه وعقله، بما أفقده كل قدرة نقدية، وقد حذر "فروم" مرارا، من خطر "الدعاية" على هيكل "شخصية" الإنسان ، وملكاته (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، صفحة 108)، وفي ظل كل هذا أضحى الإنسان المعاصر، "مستهلكا" أبديا، لا يستهلك المنتج في حد ذاته، بل يستهلك معه وقبله ،الشعار الدعائي المروج أو المرافق له، ويرجع "فروم" تصاعد نزعة التوجهات "الإستهلاكية" في المجتمع المعاصر، إلى بنية هذا الأخير نفسها، والذي لم يعد مجتمعا "إدخاريا"،كما في مراحل سابقة، بل أضحى مجتمعا "إستهلاكيا" خالصا، محتكما لآليات السوق(عرض-طلب)، التي تعدت مجال بيع الأشياء والمنتجات المادية، إلى بيع الشخصية كذلك. (فروم، المجتمع السوي، 1955-2009، صفحة 245)

بحديثه عن "الإستهلاك"ينبه "فروم"لمسألة مهمة، تدخل ضمن الظاهرة "التغريبية" أيضا، وهي تعميم أو "مطابقة" الأذواق، لدرجة أن جميع الناس، أصبحوا يلبسون نفس الملابس، ويدخنون نفس السجائر، بل ويشاهدون نفس البرامج، مع شيوع السطحية والملل، كظاهرة عامة،

طالت جميع فئات المجتمع . (فروم، ثورة الأمل -نحو تكنولوجيا مؤنسة، 1968-2010، صفحة 60)

أما على صعيد العلاقات الإجتماعية، الأسرية والشخصية، فقد هيمن "الإغتراب" كليا، حيث أضحت العلاقات بين الأفراد، أشبه بالعلاقات بين الأشياء، وسادت الملكية ،التسلط ،واللامبالاة المطلقة، هيكل البنية "الأسرية"، بل وتفاقمت الهوة ،في علاقة الفرد بذاته بشكل ملحوظ . (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، صفحة 101)

أما ثقافيا وسياسيا، فسيطرة الثقافة "الجماهيرية"، التي يمكن وصفها بالسطحية، مواكبة لحالة رفاه ثقافي مستجد، في ظل تغير كامل لمفهوم "الفضاء العمومي" الديمقراطي، وآلياته، التي سيطرة عليها "الدعاية"، لتحول تلك الروابط بين "المترشح" و"المنتخبين"، من روابط "عينية"، طابعها القرب، إلى "مجردة" بعيدة، فقد ضمنها الفرد وجوده وإنتماءه السياسي، خصوصا في ظل التكتلات والأحزاب الضخمة، التي جعلته يبدو كمجرد "ذرة"، عاجزة، إن حدث و حاول الوقوف ضد مخططاتها، كل هذا زيف العملية "الديمقراطية"بشكل كلي، ليزداد الوضع تأزما ،بتوهم كثير من الأفراد بأن القرارات السياسية الهامة، نابعة من إرادتهم هم، في حين أنها غير ذلك تماما، نظرا لإلغائهم كأفراد، بمطابقتهم ضمن نماذج إجتماعية مدروسة، و"مصنوعة" مسبقا، وفق آليات ونظم معينة، كنظم التربية والتعليم . (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، صفحة 108)

إذا فمن منطلق تأكيده على أن "الإنفصال"عن الروابط الأولية، إن لم يتم تعويضه بخلق روابط جديدة ،مع الذات، الآخر، والعالم، قوامها "الحب"، و"العمل"،اللذين يمثلان الدعامة الأساسية للفردانية الحقة، والحرية الإيجابية، فإن الفرد سيفقد بشكل كلي مركزيته، والتي تكون مصحوبة ضرورة ،بمشاعر عجز، عزلة، وإنجراف حياة(يستخدم "فروم" أيضا هذا المصطلح في إطار تحليله لذات الفرد المعاصر) رهيب، تجعل الفرد ينظر للحرية الكاملة "كعبء" لا يطاق، عبء يفرض ويحمل ضمنه إلتزامات ومسؤوليات، وجب إلقاؤها والتخلص منها، ومن تأكيده بالإستناد لعلم "النفس الفردي"، الذي يمثل الجانب، والسند العيني لعلم "النفس الجماعي"، تحول هذه المشاعر إلى ظاهرة متغلغلة، في هيكل "شخصية" الفرد ،والمجتمع المعاصرين (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، صفحة 116)، فإنه يخلص إلى أن الإنسان المعاصر،مقارنة بسابقيه، يمتلك أعظم نسبة، وقابلية للزيغان نحو تبني الحلول اللاسوية، المتمظهرة حسبه في ميكانيزمات وآليات "الهروب"، والتي حلل وعدد أهمها ،وأكثرها شيوعا، كالتنازل عن الحرية ،والهروب من وضع عدم تحقيقها بالكامل، من خلال نسج علاقات "تكافلية"لا سوية، "سادية"كانت أو"مازوخية"، يكون طرفها الآخر "شخص"، أو "مؤسسة"،أو"نظام شمولي"، ضمن ماسماه "بالتسلطية"، أو التنازل عنها عن طريق تبني توجهات "تدميرية"،موجهة نحو تدمير الذات، الآخر، و العالم، كما يمكن سلوك

سبيل هروب آخر، متمثل في التنازل عن الذات بناءا على "ميكانيزم التطابق الآلي"، والذي يكتسي توجهين، طمس الذات لصالح إندماج قطيعي ،في ثقافة جماهيرية، تكون معيارا لكل سلوكات الفرد، أو طمس "ذاتي -مؤسساتي "، يتحول من خلاله الفرد ،لمجرد آلة مبرمجة .[نذكر هنا بأن "كارين هورني"،توصلت في كتابها"طرق جديدة في التحليل النفسي"،لميكانيزمات هروب قريبة من هذه]. (فروم، الخوف من الحرية، 1941-1972، الصفحات 117-164)

6- خاتمة:

يمكن القول ختاما، بأن الحرية الإنسانية ،تمثل مطلبا "وجوديا –مركزيا"، في فكر"فروم"،للدرجة التي لا يمكن الحديث عن الإنسان- السوي، الكامل، والأصيل، في غيابها ،وذلك راجع أساسا لبعدها وإمتدادها الداخلي، الموصول بهيكل (بنية -توجهات) الشخصية ،والمؤثر عليها كذلك ،وبالرغم من تلك التشظيات الوجودية-النفسية ،التي حُف بها طريق التحرر والإستقلالية ،خصوصا في تلك المرحلة ،التالية لعملية كسر الروابط الأولية- المختلفة ،كبعد يمثل مفهوم" الحرية -من"،حيث تسقط الذات ،في بؤر "العزلة"، "العدمية"، "اللاجدوى" ،و"القلق" ،بما يهيئ لها إنزال هذا المكسب ،منزلة العبء ،الذي لا يطاق، والواجب طرحه، بالإنزواء تحت لواء روابط ،بنيات ،ونظم لا إنسانية ،والإندماج معها ،ولو كلف هذا تنازل كلي عن الذات نفسها ،حريتها، وإستقلالها ،هذه البنيات ،تمثل كما سبق الإشارة إليه "آليات هروب"،يعد الإنسان المعاصر حسب "فروم"الأكثر عرضة لتبنيها ،رغم كل هذا تظل إمكانية "التحرر-وجود" قائمة ،لو حدث -حسبه-أن واصل الإنسان طريقه هذا، ودعمه بمحاولة تحقيق "الحرية-إلى"،كحرية إيجابية، قوامها الحب، العمل، والتواصل ،والتي بها وفقط ،يربط روابطه الجديدة ،الداعمة لغايته في أن يكون- هو.

قائمة المراجع

- أولا: المراجع باللغة العربية

1. إريك فروم. (1930-2021). *الوضع البشري المعاصر. اللاذقية*، سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.
2. إريك فروم. (1941-1972). *الخوف من الحرية*. بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
3. إريك فروم. (1947-2007). *الإنسان من أجل ذاته* - بحث في سيكولوجيا الأخلاق.
4. إريك فروم. (1955-2009). *المجتمع السوي*.
5. إريك فروم. (1956-2000). *فن الحب-بحث في طبيعة الحب واشكاله. بيروت: دار العودة*.
6. إريك فروم. (1961-1998). *مفهوم الإنسان عند ماركس. دمشق*، سورية: دار الحصاد للنشر والتوزيع.
7. إريك فروم. (1962-1994). *ما وراء الأوهام. اللاذقية*، سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.
8. إريك فروم. (1964-2011). *جوهر الإنسان*. اللاذقية، سوريا: دار الحوار.

9. إريك فروم. (1966-2013). *أن تصيروا آلهة -تفسير إشعاعي للعهد القديم وتقاليده*. القاهرة: دار الكلمة للنشر والتوزيع.
10. إريك فروم. (1968-2010). *ثورة الأمل -نحو تكنولوجيا مؤنسة*. القاهرة: دار الكلمة للنشر والتوزيع.
11. إريك فروم. (1976-2018). *الامتلاك أو الوجود -الأسس النفسية لمجتمع جديد*. بيروت، لبنان: جداول للنشر والتوزيع.
12. إريك فروم. (1981-2016). *عن العصيان ومقالات أخرى*. القاهرة: روافد للنشر والتوزيع.
13. إريك فروم، سوزوكي د.ت ، *وريتشارد دي مارتينو. (1960-2006)*. بوذية الزن والتحليل النفسي. عمان، الأردن: أزمنة للنشر والتوزيع.

- ثانيا: المراجع باللغة الأجنبية

14. fromm, e. (1964). *The Heart of Man- Its Genius for Good and Evil* . New York, United States of America: Harper & Row.
15. fromm, e. (2013). . *you shall be as gods* :a radical interpretation of the testament and its tradition. new york: open road integrated media.
16. fromm, e. (2013). *escape from freedom*. new york: open read integrated media.
17. fromm, e. (2013). *the sane society*. new yourk, open road Integrated media.